obeikandl.com

الفصل السادس

مشاهد من معسكرات الكراهية والانتقام

obeikandl.com

مدخل

جون ساك لا ينكر محرقة اليهود ولا يشكك في رقم الستة ملايين، لكنه لا يتخذ موقفا عدائيا أو دعائيا ممن ينكرونها، بل يراها مسألة خلافية، يمكن قبول رأي من يفحص الأدلة على وجود غرف غاز في معسكرات أوشفيتس ويعتبرها كافية، ويمكن قبول من يرى العكس.. وهو يدرك «المنطق» في انتقام اليهود، هو بالطبع لا يبرره، لكنه يحاول رسم صورة منطقية للأحداث في بولندا عقب الاجتياح الروسي لها في يناير ١٩٤٥ وانسحاب الألمان غربا، ولذلك يقدم في كتابه جانبا من مأساة اليهود في معسكرات العمل النازية من خلال قصة شاهدته لولا الناجية من الأوشفيتس والتي أصبحت بعد ذلك مأمورة لسجن في جلايفتس البولندية من أجل الانتقام.. في حديث للإذاعة الوطنية العامة يؤكد ساك مرة أخرى أن الشاهدة التي تراجعت من قبل عن نشر قصتها لم تعترض على أي تفصيلة ذكرها في كتابه الذي قام بتحقيق أحداثه بعيدا عنها.

* المتحف الأمريكي التذكاري للهولوكوست ينظم ندوات عما فعله الأتراك في الأرمن والإيرانيون في الأكراد والكمبوديون في الكمبوديين لكنه لا يتحدث عن أي نوع من الإبادة الجماعية إذا كان اليهود من ارتكبوها.

* جون ساك أول شخص في العالم يتحدث علانية منذ الحرب العالمية الثانية عن جرائم إبادة جماعية ارتكبها يهود.

* مؤلف كتاب العين بالعين لا يعتبر من ينكر غرف الغاز «معاديا للسامية ولليهود» أو من «النازيين الجدد» بل يرى المسألة مجرد خلاف في الرأي.

* بعد أن انتهى ساك من كتابه أهدى نسخة إلى لولا فلم تبد أي ملاحظة نقدية

على قصتها.

* بعد أن عبرت الدبابات الروسية نهر فيستولا في بولندا يوم الجمعة ١٢ يناير ١٩٤٥ كان الألمان الذين لم يموتوا من قصف المدافع خليطا من الدماء والأجساد الممزقة تحت أقدام ثلاثة ملايين من جنود الجيش الأحمر.

* عند اقتراب الروس من معسكرات الأوشفيتس أمر القائد العسكري هيملر الحرس الخاص بالانسحاب ٢٠٠ ميل غربا إلى جروس روزين بألمانيا وإحضار ٦٤ ألفا من القتلة واللصوص واليهود الذين كانوا لسنوات يعملون كعبيد في معسكرات العمل.

* في رحلة انسحاب الحرس الخاص وطابور من ٦٤ ألفا من عمال المعسكرات كان الرصاص نصيب السجناء المنهكين أو المصابين بالتيفوس أو من يتعثرون في سيقان الآخرين.

* كانت لولا رقم ١٠ في طابور الزاحفين وسط الثلوج توشك أن تموت من الألم وعلى كتفيها إشارة عبد: صليب مطلي باللون الأحمر وفي تلك المسيرة رأت لولا نحو ثلاثمائة جثة على الطريق.

* بعد النجاة أصبح هدف لولا الوحيد هو مساعدة «أدا» و«زلتا» زوجتي اثنين من إخوتها على مقاومة الموت بأي شكل.

الانتقام والكراهية والتاريخ(*)

كان من المقرر أن أتحدث في المتحف الأمريكي التذكاري للهولوكوست، وكان قد أعلن عن الحديث في الكتيب الدوري للمتحف وفي موقعه على شبكة الإنترنت أيضا، لكن المتحف ألغى الندوة.

(*) نص شهادة للمؤلف جون ساك من خلال حديث بثته الإذاعة الوطنية العامة National Public Radio في ١٣ فبراير ١٩٩٧.

المتحف لا يتحدث فقط عما فعله الألمان باليهود، بل نظم فعاليات وندوات حول ما فعله الأتراك في الأرمن، وما فعله الإيرانيون في الأكراد، والكمبوديون في الكمبوديين، أي أن المتحف ينتهج نهجا تقدميا في تعليم الناس في أمريكا ما يمكن أن تؤدي إليه الكراهية العنصرية، لكن المسئولين عن المتحف للأسف لا يتحدثون عن أي نوع من الإبادة الجماعية، إذا كان اليهود هم الذين ارتكبوه، وهذا ليس مثيرا للاستغراب فقط بل مثير للحزن أيضا.

ما أقوله هنا كنت قد خططت لإلقائه في المتحف الأمريكي التذكاري للهولوكوست، وكان جمهور المتحف سيضم في الغالب كثيرا من المؤرخين، وما أنا بصدد الحديث عنه حدث قبل أكثر من نصف قرن، وعلى مدى تلك السنوات لم يتحدث مؤرخ، ولم يتحدث أحد على الإطلاق عنه علانية في أي مكان في العالم وحتى الآن.

أنا لست مؤرخا بل صحفي، وما أكتبه هو مادة خام للتأريخ، مادة – أتمنى - أن يهتم بها المؤرخون يوما ما.. كصحفي أذهب إلى أماكن الأحداث وأتابع ما يجرى، وأستمع إلى شهودها، ثم أكتب التقارير الصحفية، وسأبدأ بواحدة من تلك القصص الآن.. قصة حقيقية عن فتاة في سن المراهقة.

لولا

شعر أشقر، بنية العينين، جميلة جدا.. في المدرسة الثانوية تلعب بالحلقات الطائرة، وتقفز على أرجوحة، وتمثل دورا في قصة سنو وايت والأقزام السبعة، هي واحدة من الشخصيات الرئيسية، عند عودتها إلى المنزل كانت تسير في الشارع وهي تغني.. لم تكن تغني بالإنجليزية طبعا.. لأنها فتاة بولندية من بيدزن Bedzin في ثلاثينيات القرن العشرين، واسمها لولا بوتوك.

عندما كانت في الثامنة عشر من عمرها اجتاح النازيون الألمان بولندا، ووضعت

لولا على متن قطار متجه إلى مدينة أوشفيتشيم - أو أوشفيتس كما نعرفها الآن، طفلها الرضيع الذي لم يتجاوز العام أخذ من ذراعيها، ولم تره مرة أخرى، لم ترسل إلى غرف الغاز، ولكن والدتها أرسلت هناك. قتلت أمها وشقيقها وشقيقتها وأبناء وبنات إخوتها.. أربعة عشر شخصا.. لكن أحد أشقائها قال لها قبل إعدامه باللغة اليديشية «Nem nekumah انتقمي!».

(لم أكن لأذكر غرف الغاز في متحف الهولوكوست، فالكثيرون هناك يعرفونها، ولكن هنا على وجه الخصوص ربما لا يصدق كثيرون أن معسكرات أوشفيتس كان بها غرف الحرق بالسيانيد، وأنا أقبل أن يفحص أي شخص يتمتع بمصداقية في الأدلة على وجود غرف الغاز ثم يرى أنها ليست كافية لإثبات ذلك، وأقبل في نفس الوقت أن ينظر آخرون في تلك الأدلة ويخلصون إلى أنها كافية، ولا أعتبر من ينكر غرف الغاز «معاديا للسامية» أو من «الناريين الجدد» أو من المعادين لليهود، المسألة مجرد خلاف في الرأي)

الانتقام

في يناير ١٩٤٥ هربت لولا، كان وزنها ستة وستون رطلا، عيناها غائرتان، شعرها قصير كالرجال، ظهرها محني، يدها عاجزة عن الحركة، ترتدي فردتي حذاء شمال، وكل من كانت تحبهم ماتوا، أو أنها تعتقد ذلك، كانت تتفجر كراهية للألمان، وتريد أن تعبر عن كراهيتها لهم وأن تنفثها فيهم، إحدى صديقاتها من مرحلة الطفولة كانت في الحكومة البولندية، ذهبت لولا إليها وقالت لها «أريد أن أنتقم».

بعد شهرين، كانت الحرب مازالت مستمرة، وكانت لولا في ألمانيا، في الجزء الذي احتله الروس ويديره البولنديون، وارتدت لولا زيا بلون الزيتون، على سترتها أزرار نحاسية، وعلى الياقة ما كان يسميه الكشافة «البيض المخلوط» وعلى كتفيها نجوم. وبجوار فخذها مسدس لوجار، كانت لولا تعمل لحساب الحكومة

البولندية، كانت قائد سجن للألمان، وتسعى للثأر من هولوكوست اليهود.

الآن، لولا فتاة يهودية، درست التوراة، والتوراة تقول: «لا تنتقم»، ولولا تعرف ذلك، تعرف أنها تخالف تعاليم التوراة، ولكن هل بيننا أحد هنا يمكن أن يدينها على ذلك؟ أي منا لا يستطيع أن يفهم دوافعها؟ أستطيع أن أفهمها، ويمكن أن أجد من يسيطر عليهم هوس الانتقام المتعاطفين معها.

التقيت لولا بوتوك في إبريل ١٩٨٦.. كنت أعيش في هوليوود.. ولدى اجتماع في شركة بارامونت، وكانت السكرتيرة هناك تقرأ شيئا كتبته عن «نادي أبناء المليارديرات». قالت «إن المقال أعجبها. وأنه يذكرها بعائلتها»، فسألتها «نادي أبناء المليارديرات يذكرك بعائلتك؟» قالت: «نعم، كل هذا القتل.. أمي لولا كانت في أوشفيتس.. وبعد ذلك كانت مديرة سجن مليئ بالنازيين». قلت لها «ماذا؟ مديرة السجن... ألا تعلمين أن هناك سينما؟.. يجب أن تحكي ذلك لليندا كاتبة السيناريو، وهي قريبة جدا من رئيس الشركة»، ولكن السكرتيرة قالت لي: «أعلم أن هناك سينما، لكنني لا أريد أن أقول شيئا لليندا، أريد أن أنتج ذلك الفيلم بنفسي!»

وجريا على قول مأثور في هوليوود: «المنتج هو مجرد شخص يعرف كاتبا»، توصلنا بسرعة إلى اتفاق.. أنا كاتب والسكرتيرة تعرفني، وبالتالي فهي منتجة، وما علي إلا أن أكتب مقالا في مجلة عن أمها لولا، وهي تعد فيلما عن ذلك.

بعد بضعة أيام.. وفي مقهى موستاشي في هوليوود، تناولت العشاء مع لولا.. امرأة أنيقة، تضع أحمر شفاه بلون المرجان وكحل أسود على عينيها، امرأة فاتنة تتحدث خمس لغات بطلاقة، في السادسة والستين من عمرها، وبدأت لولا تحكي لي قصتها، قصة لم يكن لصاحبتها بعد ذلك أي ملاحظة نقدية، فبعد أن صدر الكتاب أرسلت إليها في أستراليا حيث عاشت آخر سنوات عمرها نسخة كهدية واتصلت بها، وكان رد فعلها عاديا جدا، فقد تغيرت ظروفها تقريبا.. وأصيبت في آخر أيامها

بمرض الزهايمر.

بداية القصة مع الزحف الروسي على بولندا

في الساعة الخامسة صباح يوم الجمعة ١٢ يناير ١٩٤٥، كسر الصمت على طول نهر فيستولا في بولندا صوت عال يأمر بإطلاق النار! وصرخ آلاف الضباط الروس بكلمة «تمام يا أفندم»، وحملت الرياح كلماتهم إلى آذان جنود المدفعية الروس، وفي ثوان بدت الأرض كما لو كانت قد انشقت مع انطلاق عشرين ألف مدفع وصاروخ وقذائف هاون تنفجر على رؤوس جنود جيش هتلر النائمين، تلاها نداء آخر «أغلق! عمِّر! أطلق!، وبعدها انطلقت الذخائر من العشرين ألف مدفع مرة أخرى، «أطلقوا النار!»، «أطلقوا النار!»، «أطلقوا النار!» «الآن أطلقت المدافع مائة ألف دفعة نيران، واستمر سقوط القذائف على الألمان لمدة ساعة وخمس وأربعين دقيقة.. وعندما توقف دخان المدافع، كان الألمان الذين لم يموتوا من القصف خليطا من الدماء والأجساد الممزقة، الدم ينزف من آذانهم وأنوفهم وأفواههم المفتوحة تحت عجلات الدبابات الروسية وأقدام ثلاثة ملايين من جنود الجيش الأحمر يمرون فوق الجثث، وكان الشعار المكتوب على الدبابات السوفيتية: «إلى برلين!».

وبعد ستة أيام، اجتاح الروس مائة ميل غربا، وهزت قذائفهم نوافذ مقر قوات الحرس الخاص بهتلر في بلدة أوسفيتشم المليئة بأشجار الصفصاف، أو المعروفة حاليا بـ «أوشفيتس»، وفي الداخل كان الرجال والنساء من أفراد جيش هتلر الخاص، الذين ظلوا لسنوات يستمتعون بلحم الخنازير والبط المحمر والأرانب البرية، بعد أن يغسلوها بالنبيذ البلغاري والخمر اليوغسلافي، وبعد العشاء كان الرجال يسحبون الكراسي من تحت أرداف النساء، ليسقطن على الأرض في حالة من ضجيج السكارى، ومنهم من كان يتقيأ على السجاجيد الفارسية، ويراهنون من سيكون الشخص التالي الذي سيتقيأ، والنساء يعبثن مع الرجال السكارى، وعندما

اقترب الروس خرج أفراد قوات الحرس الخاص من المقر وهم يتقيأون الخمر اليوغسلافي ويندبون مصيرهم: «انتهى هتلر» و«انتهى كل شيء».

في تلك الليلة كانت قوات الحرس الخاص مذعورة من الأسلحة الروسية.. أي رحمة أو شفقة كان يمكن أن يتوقعها رجال أو نساء قوات حرس هتلر الخاص اللاتي يتعطرن بعطر «نوت دي باريس» من المشاة الروس؟ وفوجئ أفراد الحرس الخاص بأوامر هيملر - القائد العسكري المقرب من هتلر في برلين - بالانسحاب إلى جروس روزين بألمانيا، على بعد مائتي ميل غربا، وإحضار ٦٤٤٣٨ من القتلة واللصوص واليهود الذين كانوا لسنوات يعملون كالعبيد في أوشفيتس، ولم يكن هناك ما هو أسوأ من ذلك الانسحاب البطئ بسبب جرجرة أقدام أكثر من ٦٤ ألفا من العبيد معهم؟ لكن رجال الحرس الخاص الملاعين، انقضوا بقبعاتهم التي تشبه قبعات القراصنة يركبون دراجاتهم البخارية على الإسطبلات الواسعة حيث يعيش الستون ألف.

وصاح رجال الحرس الخاص: «قفوا!»، كالجرذان المتراصة فرقهم رجال الحرس الخاص، وصاح أحدهم «أيها الخنازير العفنة! أخرجوا!»، وتابع الرجل سيره داخل الممرات الرطبة، واتسخ حذاؤه من براز أحد السجناء المصاب بالإسهال، فراح يمسح الحذاء في مرتبة من القش، ويرفس السجناء نصف النائمين، ولتفادي القمل الذي ينتشر في أجسادهم لم يكن رجال الحرس الخاص يمسون أحدا من السجناء سوى بالحذاء أو السوط.

مرة أخرى صاح رجال الحرس الخاص: «أسرعوا!»، وأطلق الرصاص من مسدسه نصف الآلي على كل السجناء المنهكين أو الذين يعانون من التيفوس فقتلهم، وعندها كان الستون ألفا يهرولون بما تبقى من أمتعتهم.. بأحذيتهم، ويركضون في الهواء الطلق، ثم صاح عريف من الحرس الخاص: «تراصوا!، عد

الأفراد!»، لكن آخرين من الحرس الخاص قالوا «لا، ليس هناك وقت!.. نحن سنتحرك الآن»، وتجاوز السجناء الأسلاك الكهربية ذات الـ ٦٠٠٠ فولت، وبوابة أوشفيتس، واللافتة المكتوب عليها «العمل يجعلك حرا»، على صوت الأوامر بالسير «إلى اليسار!».

من بين أولئك السجناء في تلك الليلة الشتوية كانت لولا بوتوك، فتاة يهودية من بولندا.. كانت رقم عشرة في طابور الزاحفين على الطريق إلى ألمانيا، وكان الثلج يتساقط، ليتجمد فوق حواجب لولا، وعلى مسافة غير بعيدة وراءها، كان الروس يضعون نسخا من صحيفة البرافدا داخل أحذيتهم للتدفئة، أما الحرس الخاص الألماني فكانوا يستعملون نسخ صحيفة أبندبوست، لكن لولا كانت تسير في حذاء عبارة عن فردتين شمال، والألم في أقدامها يكاد يقتلها، ركبها تصطك في بعضها البعض، ومن الاحتكاك بينهما كانت ركبها تنزف، والدم يسيل بوصة أو بوصتين قبل أن يتجمد على ساقي لولا العاريتين، وراءها كان الروس في معاطف من الفراء مكتوب عليها «الكلب برdان»، لكن لولا كانت ترتدي ملابس قديمة ومعطفا عليه إشارة عبد على الكتفين: صليب مطلي باللون الأحمر، والبرد يتسرب داخله إلى الجلد، وإلى العظم، ولم يكن في جسد لولا عضو آخر لم يتجمد من البرودة سوى قلبها.

لم تكن تفكر سوى في عائلتها، ولدت لولا في بلدة بيدزين على بعد عشرين ميلا لأب وأم مطلعين على التوراة، وكان لها عشرة إخوة وأخوات أكبر منها سنا: من بينهم ملاكم، ورئيس عمال، ومحاسب، ومصمم أزياء، ورئيس فرقة موسيقى شعبية كانت أجمل أغانيه «السماء الزرقاء» (ابتسم لي)، ومن بينهم أيضا عالم لغويات وطيار، لكن الألمان عندما اقتحموا باب منزلهم في ١٩٤٣ صائحين «أيها اليهود الأوساخ! أخرجوا!» واقتادوا طابورا من هؤلاء الإخوة والأخوات وأبنائهم وأم لولا وابنتها «كالماشية» إلى أوشفيتس، كانت لولا الوحيدة التي اعتبرها الألمان

سليمة الجسد، وكان عمرها عندئذ واحدا وعشرين عاما، أما الباقي فقد اختارهم طبيب الحرس الخاص «مينجل»، لكي يسمموا بالغاز (أو الشنق في حالة واحدة) والحرق في الأفران ذات الرائحة البشعة التي أقامها الحرس الألماني الخاص في أوشفيتس، ومن بين من أحرقوا كانت ابنة لولا، التي لم يتجاوز عمرها عاما واحدا.

وظل المشهد عالقا في ذاكرة لولا.. رجال الحرس الخاص الألماني بملابسهم الصوفية السوداء يقتادون ستين ألف شخص من المنكوبين، ويصيحون فيهم بغضب «استمروا في السير!»، بينما تزمجر كلابهم كلما أطلقوا النار على أي شخص يتوقف عن السير لأي سبب، كأن يتعثر في شيء أو في سيقان الآخرين، في تلك المسيرة رأت لولا نحو ثلاثمائة جثة على الطريق، والآن، بعد عام ونصف من تلك الرحلة القاسية لم تكن لولا تفكر سوى في «أدا» و«زالتا» التائهتين بجاورها، هما زوجتا اثنين من إخوتها، كانت تتصور وقتها أنهما الوحيدتين الباقيتين على قيد الحياة من بين أهلها.. ساعدتهما على البقاء في أوشفيتس بإطعامهما شوربة سيئة الرائحة (هل كانت شوربة اللفت الأصفر؟ أم نبات القراص؟ اليهود كانوا يعتقدون أنها شوربة نبات سام) تسقيهما بالمعلقة، قائلة بلغة الإيدش، «كلي»، فترفض كل منهما باكية، فتصرخ لولا «ابلعي!» فيبتلعان الشوربة بعد أن تغلقا أنفيهما. في أوشفيتس، صممت لولا مثل المدرب العنيف على أن تبقى عائلة بوتوك.

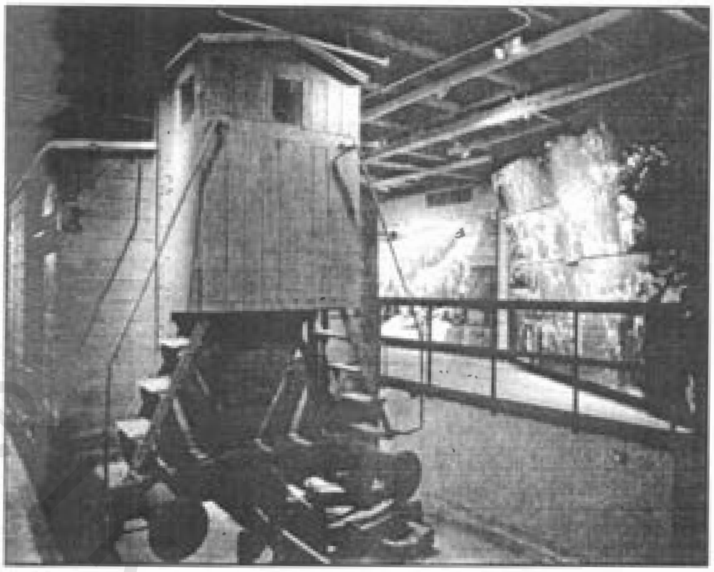

المتحف الأمريكي التذكاري للهولوكوست من الداخل

وسط مدينة بيدزين حيث عاشت لولا سنوات طفولتها

obeikandl.com

شارع ياجيلونسكا في جلايفتس التي ضمت معسكر لولا بوتوك في بولندا

من مدينة شفينتوشلوفيتس حيث كان معسكر شلومو موريل

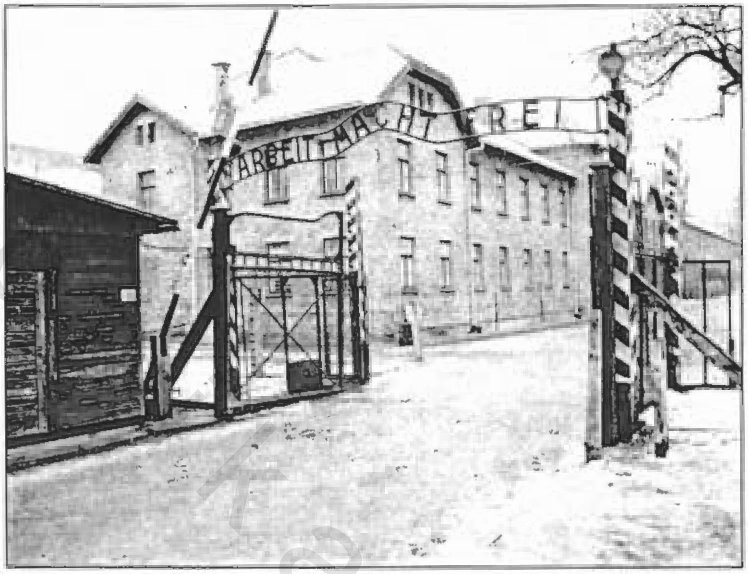

البوابة الرئيسية لمعسكرات العمل في أوشفيتس

عمال في أحد معسكرات أوشفيتس ١٩٤٤

في الطريق إلى معسكرات العمل في أوشفيتس النازية

ouhnd.com